

دور المرابطين في أحداث القرن 10هـ/16م في الجزائر

د. بعارسية صباح

أستاذة محاضرة (ب)

جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة

الملخص:

عاشت الجزائر في بداية القرن 10هـ/16م فراغا سياسيا، بسبب صراع الحكام على العروش، وسيطرة الأعراب على مداخل المدن، وزادت الهجرة الأندلسية الأوضاع تأزما، وكانت مبررا للإسبان لاحتلال المدن الساحلية الجزائرية. في خضم هذه الأوضاع برز المرابطون (شيوخ الزوايا، شيوخ الطرق الصوفية، الأشراف...) خاصة في المناطق التي تعرضت للغزو الإسباني. وكان لهؤلاء المرابطين أدوارا خلال القرن 10هـ/16م، فقد أصلحوا ذات البين ونشروا الأمن في المناطق التي كانوا يتمتعون فيها بنفوذ روحي. كما عملوا على صد خطر الإسبان على السواحل، وشاركوا بأنفسهم أحيانا في رد الهجمات الإسبانية. وعندما ظهر العثمانيون بغرب المتوسط، كمجاهدين، يهاجمون الصليبيين، وينقذون إخوانهم في الدين من الأندلسيين، وضع المرابطون يدهم في يد أوائل العثمانيين، ودعموا حكمهم بالجزائر، باعتبار هؤلاء يجاهدون في سبيل الدين، وبهذا ساهم المرابطون في إسقاط دولة الزيانيين والحفصيين بتحالفهم مع حكام الجزائر الجدد ضد بني زيان وبني أبي حفص. وهذا التحالف نتج عنه بالضرورة تحالف المرابطين مع الحكام الجدد لتحرير المواقع المحتلة من طرف الإسبان.

Résumé:**Le rôle des marabouts dans les événements du 10^{ème} siècle de l'hégire en Algérie.**

Ce présent article examine le rôle des marabouts dans les grands événements qu'a connu l'Algérie au 10^{ème} siècle de l'hégire/16^{ème} siècle après J-C. Sachant l'importance de ce siècle pour l'Algérie et le grand Maghreb et pour cause: l'occupation espagnole du littoral, l'insécurité dans les campagnes, qui a causé la propagation des voleurs et des coupeurs de route, et le contrôle des plaines et des abords des villes par les tribus bédouines. Tous cela est dû à la faiblesse et au laxisme de l'état causée lui-même par les conflits au sein des familles régnantes. C'est dans cet état de chose que les marabouts ont émergés, et ont contribué à la sauvegarde du pays et de ses habitants face à l'Espagne catholique. Ils ont sécurisé les

routes, et ont mis leurs mains dans celles des premiers Ottomans contre les « mécréants » en appelants au « jihad », c'est ainsi qu'ils ont contribué à l'installation des Ottomans en Algérie, parce que ces derniers étaient des « soldats de Dieu », alors que les Zianides et les Hafside ont failli, il y en a même parmi eux qui se sont alliés aux Espagnoles.

مقدمة:

عاشت الجزائر في بداية القرن 10هـ/16م فراغا سياسيا، بسبب صراع الحكام على العروش، وسيطرة الأعراب على مداخل المدن، وزادت الهجرة الأندلسية الأوضاع تأزما، وكانت مبررا للإسبان لاحتلال المدن الساحلية الجزائرية. في خضم هذه الأوضاع برز المرابطون (شيوخ الزوايا، شيوخ الطرق الصوفية، الأشراف...) خاصة في المناطق التي تعرضت للغزو الإسباني. وقد ساعد على بروزهم فشل الحفصيين في الشرق الجزائري، وحتى في تونس وطرابلس، وفشل الزيانيين في الغرب الجزائري في التصدي للحمالات الإسبانية على المرسى الكبير ووهران وبجاية وجيجل وغيرها. وكان لهؤلاء المرابطين أدوارا خلال القرن 10هـ/16م. كيف ذلك؟

1) دور المرابطين في إصلاح ذات البين وفي نشر الأمن:

منذ القرن 9هـ/15م نشط شيوخ الزوايا في توعية السكان، وتوجيههم في الجانبين الروحي والثقافي بأن قاموا بتعميق نشر الدين الإسلامي والتعليم بالريف¹، فعوضوا ذلك الفراغ الذي أصبحت تعيشه حواضر المغرب الأوسط (الجزائر) وبواديه بفعل الفوضى السياسية التي كانت سائدة أواخر العهد الحفصي والزياني، والتي زاد من خطورتها الغزو الإسباني للسواحل واستيلائه على حواضرها.

لقد امتد دور المرابطين إلى إثارة الحماس ضد الغزاة الإسبان، محاولة منهم لنشر الأمن فضلا عن إصلاح ذات البين، وتنبيه الحكام ونصحهم. فهذا مرابط لم يذكر مرمول اسمه سعى لإنقاذ حامية تلمسان سنة 953هـ/1546م من موت محقق عند زحف دالكوديت D'Alcaudete، حاكم وهران المحتلة، على المدينة². وهذا مرابط آخر مجهول الاسم كذلك، أزال النفور الذي كان بين خيضر باشا حاكم الجزائر (حكم بين 997هـ-1003هـ/1589-1592م) وأمير بني عباس³ سي أمقران سنة 999هـ/1590م، معتبرا القتال بين الطرفين عارا وحراما لأن ذلك يخدم النصارى، الأعداء الحقيقيين، فالأجدي محاربتهم بدل الاقتتال بين أبناء الدين الواحد⁴. وذاك مرابط آخر لام حسن فتريانو (حكم بين 985هـ-988هـ/1577م-1580م)، واعتبره السبب في الجفاف الذي أصاب الجزائر بين 986-987هـ/1578-1579م لأعماله الشنيعة وقسوته المفرطة. وأوصل المرابط سيدي بوطيب صوته للسلطان العثماني شاكيا حسن فتريانو⁵. وذكر جولي Joly أن سيدي بوزيد (عاش في القرن 10هـ/16م) رفض استضافة فرقة من الجند العثماني لتجبرهم⁶. وهذا الموقف كانت اعتمادا على نفوذهم الروحي على العامة وعلى الحكام.

وكان الونشريسي (914هـ/1509م) قد أشار أن بعض المرابطين أقاموا بالأماكن المخوفة لتأمين السبل⁷ كما حموا القوافل وراقبوا الأمن العام⁸. ويؤكد هذا ليون الأفريقي عندما أشار أن من أراد عبور ضواحي مدينة الجزائر، سواء من الأهالي أو الغرباء، كان عليه اصطحاب مرابط ليؤمن الطريق⁹. كما كان شيخ الطريقة الراشدية أحمد بن يوسف

الملياني (927/هـ 1521م أو 930/هـ 1524م على اختلاف الروايات) يقوم بوظيفة صاحب الشرطة ويسعى لتمكين الأشخاص من استرجاع ما سُرق منهم¹⁰.

ورغم امتداد السيادة العثمانية على بجاية، بعد تحريرها من الإسبان، والمناطق المجاورة فإن الأمور الأمنية في هذه الأخيرة كانت تُترك لشيوخ المنطقة؛ فعلى عاتقهم كانت تقع مسؤولية توفير الأمن بالطرق والأسواق الواقعة في منطقة نفوذهم كما هو الشأن في منطقة البابور¹¹. وذكر الفكون (توفي 1073/هـ 1662م) أن المرابطين كانوا يرافقون القوافل لحمايتها من "متلصصة البلد"، وأن المرابط سيدي أحمد بن بوزيد، بعد فتنة 975/هـ 1567م بقسنطينة، عمل على إعادة الممتلكات التي سرقها اللصوص من السكان¹². وحتى الحامية العثمانية، عند توجهها سنويا إلى بجاية، كانت تصطحب معها مرابطا من المنطقة لتحتاز الطريق البري بسلام وإلا فلها تسلك الطريق البحري¹³.

ومن أمثلة دور المرابطين في إصلاح ذات البين استنجد الناس بهم كلما عمت الفتن، حيث قبلت القبائل "البربرية" تدخل المرابطين لوقف التطاحن¹⁴. كما فعل سيدي عبد الرحمان بن عبد الله بن عبد الرحمان اليعقوبي (القرن 10/هـ 16م)، "ذو الكرامات"، فقد أصلح بين أولاد طلحة بالغرب الجزائري. وعندما عارض أحدهم الصلح دعى اليعقوبي عليه فصار "يثن ويتوجع من كل أعضائه حتى مات"¹⁵. ذلك أن رفض قرار المرابط في التحكيم، يؤدي إلى البلاء، وشيوخ الطرق الصوفية، فكوا التزاعات القبلية عن طريق التهديد بالعقاب السماوي¹⁶، فـ"إذا ضاق ذرع الولي هلك من يؤذيه في الحال"¹⁷، مثل دعاء المرابط سيدي محمد قدار (القرن 10/هـ 16م) على أولاد هيرة لتعرضهم للمهاجرين الأندلسيين، فكان مصيرهم الانقراض بفعل هجمات قبيلة سويد والإسبان¹⁸.

وذكر الفكون أن جده قام، بإيعاز من الحكام العثمانيين، بمهمات سياسية بين هؤلاء وبين الأعراب "المتغلبة على البلد"¹⁹، ذلك أن الحكام العثمانيين أوكلوا للشيوخ الدينيين مهمة إدماج مجتمع البدو والقبائل المحاربة، والمحافظة على ولائها للحاكم الذي أدرك ضرورة التطبيع والمهادنة، لأن ما كان يهم الحكام العثمانيين هو إيقاف التمرد²⁰. وقد

كان خير الدين بربروسا (حكم بين 925هـ-940هـ/1519-1534م) قد حث قادة الحاميات على تمتين العلاقات مع أهل البلد، وهذا ليس ممكنا إلا مع أعيان ومرابطي المنطقة. وهذا ما قام به الشيخ الفكون الجد مع أولاد يعقوب بن علي الهلالين الذين كانوا يسيطرون على المنطقة الممتدة بين عنابة شرقا إلى سطيف غربا وتقرت جنوبا²¹. كما بادر خير الدين إلى تمتين العلاقات بمكافأة عبد الله المرداسي شيخ الحنانشة لموقفه العدائي من الحفصيين سنة 940هـ/1533م ببونة، وذلك بمنحه قيادة المتطوعين العرب، ما أدى إلى دخول قبائل الحنانشة والنمامشة والحراكتة تحت لواء العثمانيين لأنهم نادوا بالجهاد²².

إن نشر الأمن في زمن قل فيه الأمان لم يكن بالهين، لكن المرابطين سعوا لذلك بفضل النفوذ الروحي الذي كانوا يتمتعون به لدى الناس، كما أصلحوا بينهم باستغلال نفس النفوذ لقبول تحكيمهم، ما خفف من المعاناة التي كان يعيشها الجزائريون، في وقت كانت الأخطار تهدق بالجزائر.

2) دور المرابطين في التعبئة والتصدي للخطر الخارجي:

أمام فشل الحكام الحفصيين والزيانيين في مواجهة الأخطار الخارجية والداخلية، مال الناس إلى الالتفاف حول المرابطين من شيوخ زوايا وشيوخ طرق صوفية²³، خاصة بعد الانتصارات التي حققها الإسبان، وملاحقتهم الأندلسيين الذين هاجروا إلى بلاد المغرب هربا بدينهم²⁴، فكانت كلمتهم تجدد التجاوب لدى العامة إذا دعواهم لمواجهة الأجنبي ومحاربة "الكفار"²⁵، ما يدل على التأثير النفسي الذي كان يتمتع به المرابطون تجاه العامة خاصة إذا تعلق الأمر بالجهاد²⁶، فقد كان الناس مقتنعين بأقوالهم، وحسبهم أن من مات دفاعا عن الأرض مات شهيدا، ومن قتل عدوا كافرا دخل الجنة²⁷، وقد اعتبروا المناطق المحتلة رباطا إلى يوم الدين²⁸.

وقد اتخذت الحملات الإسبانية على الجزائر وعلى بلاد المغرب في إثر سقوط الأندلس، شكل حملات صليبية يباركها الباباوات بروما، وتزكيها الحكومات الأوروبية،

بزعامه إسبانيا الكاثوليكية التي بدأت تتدخل في شؤون الزينيين بتلمسان، والحفصيين بتونس، وتستولي على المدن الساحلية، وتتدخل في الجهات المتاخمة لوهرا²⁹.

ولعل خير مثال نذكره عن دور المرابطين في الدعوة إلى الجهاد، وتعبئة الناس للتصدي والمجوم على الكفار هو ما قام به الشيخ محمد التواقي (توفي نهاية القرن 9هـ/بداية القرن 16م) مرابط بجاية وأتباعه من بعده من دور في تعبئة الناس للدفاع عن المدينة، وإيواء مجاهدي البحر، ومساعدة منكوبي الأندلس، فلم تسقط المدينة إلا بعد وفاته³⁰.

ونلاحظ نفس الموقف بمدينة مستغانم، حيث لم يتوصل مجلس الحرب الإسباني لاتفاق حول غزو المدينة، رغم عرض الشريف السعدي عبد الله الغالب بالله (حكم بين 964هـ-982هـ/1557م-1574م) وبعض الأعراب خدامهم على الإسبان، للعداوة التي كانت بينهم وبين الحكام العثمانيين، وذلك لإدراك بعض الممثلين بالجلس أن المرابطين سيعملون على إحباط التآمر ضد العثمانيين وعلى إثارة الناس لمنع الأعراب من مساعدة الإسبان³¹. وهذا ما قام به مرابط المدينة عبد الرحمان أبي حميد الذي حمها من الإسبان، الذين حاولوا دخولها سنة 966هـ/1558م. وقد استمات سكان المدينة في الدفاع عنها إلى حين وصول النجدة من مدينة الجزائر، فانهزم الإسبان وقُتل قائدهم دالكوديت وأسر ابنه دون مارتين Don Martin. ومما قاله المرابط أبو حميد في هذه المناسبة:

سلطانها سعيد وميتها شهيد وظالمها ما يموت كيريد³².

وقد وقف المرابطون وسكان الجزائر، وحاكمها خلال ثورة المورسكيين بإسبانيا سنة 976هـ/1569م، موقفا مؤيدا لإخوانهم الأندلسيين الثائرين، فقد كانت الأسلحة تُجمع في مساجد الجزائر لفائدتهم³³ بفعل الحماسة الدينية التي كان ييئها المرابطون.

إن القوى الدينية لم تستكن ولم تتراخ عن الدفاع عن الجزائر ضد الإسبان. فهذا المرابط عبد الرحمان اليعقوبي (توفي بعد 954هـ/1548م)، رغم أنه رفض حكم العثمانيين، لكنه كَوّن حلفا ضد الإسبان، عندما دخلوا تلمسان في حدود سنة 948هـ/1543م، وجمع قبائل أنجاد، وبني سنوس، والترارة ومترارة... مع شخصيات مهمة من تلمسان، وقعوا كلهم حلفا لإخراج الإسبان من المدينة³⁴.

إن موقف المرابطين من الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر ساعد على عدم توغل الإسبان لدواخل البلاد، إذ وجدوا مقاومة شديدة من السكان بتحريض من شيوخهم الدينيين، وذلك ببث الحماسة الدينية ضد "الكفار"، وهذا ما سيخدم الحكام الجدد للجزائر.

3) دور المرابطين في إرساء دعائم الحكم العثماني في الجزائر:

لما ظهر أوائل العثمانيين في السواحل الجزائرية، مال المرابطون إلى التحالف معهم ضد الغزاة الإسبان، والتعاون معهم ضد الحكام الحفصيين، والزيانيين المتخاذلين، أو الفاشلين في التصدي لأولئك الغزاة. وقد تكرر التعاون بين العثمانيين والجزائريين، وفي مقدمتهم المرابطين في كل من جيجل، وبجاية، ووهران، وعنابة، ودلس والجزائر³⁵، حيث قام عروج بارباروسا (قتل 1518/924م) ورفاقه بتحريض من المرابطين، وفي مقدمتهم المراتب أحمد بن القاضي (1527/933م) بالهجوم عدة مرات على بجاية سنوات 918-921هـ/1512-1515م، لكن عروج فشل في فتح المدينة. لكنه، وبدعم من المرابطين، افتك مدينة جيجل من الجنويين سنة 920هـ/1514م. وبمساعدة الزعماء المحليين استطاع فتح شرشال سنة 922هـ/1516م، ثم فتح جزائر بني مزغنة بطلب من أهلها³⁶.

وتذكر المصادر أن ابن القاضي، حاكم إمارة كوكو، هو الذي ساعد الإخوة بربروسا على إرساء حكمهم بمدينة الجزائر³⁷، فقد ترأس الوفد الذي بعثه خير الدين بربروسا إلى السلطان العثماني سليم الأول، ممثلاً لعلماء وأعيان الجزائر³⁸، فضرب خير الدين السكة³⁹، ومعلوم ما لضرب السكة من مظهر لسيادة الدولة. ولكن الصداقة بين ابن القاضي والعثمانيين لم تدم طويلاً، وسبب ذلك فيما يبدو عدم استماتة ابن القاضي في الدفاع عن عروج في تلمسان حفاظاً على حياته⁴⁰. ثم إنه ما لبث أن ثار على خير الدين بارباروسا سنة 925هـ/1519م، واحتل المتيعة، وانتزع مدينة الجزائر منه سنة 926هـ/1520م، بتحريض من الحفصيين⁴¹. ولما تمكن خير الدين من العودة إلى مدينة الجزائر سنة 933هـ/1527م، مستجيباً لاستغاثة مشايخ المدينة⁴²، بعث

خليفة ابن القاضي أكابر القوم ومشايخهم إليه طالبا العفو، فغفا عنه احتراماً للمشايخ، خاصة وأن هؤلاء أنكروا كل صلة بما أقدم عليه ابن القاضي⁴³.

ذلك أن خير الدين حاز على ثقة السكان بمعاملته لهم باللين، وباحترامه لمشايخهم، فقد ربطته علاقات طيبة بالمرابطين والعلماء⁴⁴، مثل المرباط سيدي أحمد الكبير (توفي 947هـ/1540م)، وهو مؤسس مدينة البليدة. زاره خير الدين سنة 942هـ/1535م، وبني له فيها مسجدا وحماما وفرنا⁴⁵.

كما لم يتمكن عروج من تلمسان سنة 923هـ/1517م إلا بتأييد من بعض شيوخها وعلمائها. واستولى على الحكم فيها بعد الإطاحة بحاكمها الزياني الذي استنجد بالإسبان، وتمكن هؤلاء من القضاء عليه سنة 924هـ/1518م، وإعادة حليفهم الزياني لعرش تلمسان⁴⁶. وتابع خير الدين جهود أخيه عروج، وبمساعدة من المرابطين وبدعم من السلطان العثماني تمكن هو ثم خلفاؤه من إرساء دعائم حكم عثماني في الجزائر.

ومن أبرز المرابطين الذين آزرروا العثمانيين، ومكنوا لهم في البلاد، نذكر على الخصوص: الشيخ أحمد بن يوسف الملياني، الذي كان على صلة بالإخوة بربروسا منذ مجيئهم إلى الحوض الغربي للمتوسط، وذلك بعد تضيق الزيانيين عليه فوضع يده في يد العثمانيين⁴⁷. فبعد دخول بربروسا الجزائر بعث للملياني هدايا ومنحه جعلا ماليا، وحصل منه على معلومات عن منطقة الغرب الجزائري، وعن حالة السكان، واستشاره في أمور كثيرة⁴⁸. لقد أدرك العثمانيون أن المرابطين خير حليف لهم في صراعهم مع الإسبان، والملياني هو الذي دعا السكان لتأييد إسحاق بربروسا والقبطان إسكندر، أثناء حصار قلعة بني راشد (من نهاية سنة 923هـ/1517م إلى منتصف سنة 924هـ/1518م)، الذي أقامه حاكم تلمسان الزياني وحلفاؤه الإسبان ضد الحامية العثمانية⁴⁹.

وقد استغل الإخوة بربروسا كما ينبغي ذلك التحالف في صراعهم مع بني زيان وحلفائهم الإسبان. ويقف الملياني دليلا واضحا على دعمه ودعم أتباعه في الغرب الجزائري للقوة العثمانية الجديدة في المنطقة على حساب أمراء بني زيان. وقد كان اعتقاد الناس في بركة الشيخ الملياني كبيرا لدرجة قولهم أن الله أنزل غضبه على من أغضب

وليّه؛ فالمرسى الكبير ووهران، سقطتا في يد الإسبان بعد دعوة الملياني على الزيانيين⁵⁰، وسقوط المدينتين كان بعد لعنة الملياني الأولى (في عهد أبي عبد الله محمد الزياني 910-922هـ/1505-1516م) بعد خروجه من رأس الماء، أما لعنته الثانية فكانت في عهد أبي حمو (922هـ-935هـ/1516-1528م)⁵¹. لكن كيف يدعو مرابط على مدينة يسكنها مسلمون، ويتسبب بذلك في وقوعها في يد الصليبيين؟

وقد أدرك حكام الجزائر العثمانيين الأوائل ما للشيخ الملياني من نفوذ على العامة، فبدلوا جهدهم للحفاظ على ذكراه، وتقوية نفوذه روحيا، حتى يكون كالقطب الجاذب المساعد على تهدئة الفتن بين سكان الجبل وعلى كبح الفوضى المزمعة في قبائل السهل⁵².

وكما تقدمت الإشارة، كان أحمد بن القاضي من أوائل من دعم الإخوة بربروسا، ثم انقلب على خير الدين، وقُتل في معركة ضده. ولما مال خليفته إلى الإسبان سنة 943هـ/1536م، أعاب عليه مرابطو زواوة ذلك، فلم يجد هذا بدا من وقف المفاوضات⁵³، لأنه كان على علم أن تجاهلهم يعني فقدان مصداقيته أمام العامة. وهذا ما حدث له فيما بعد، فقد خذله رعاياه من الزواوة لأنه نوى التحالف مع الملك شارلكان (توفي 965هـ/1558م) سنة 948هـ/1541م، ولم يقفوا إلى جانبه عندما وجه ضده حسن آغا (حكم بين 940هـ-950هـ/1534م-1544م) حملة تأديبية لموقفه من حملة شارلكان على الجزائر، حيث ولأول مرة، منذ استقرار العثمانيين بالجزائر، دفع حاكم كوكو ضريبة للعثمانيين، ووضع ابنه ذا الخمسة عشر عاما رهينة لديهم⁵⁴.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على نفور الناس من المسلم المتحالف مع الكفار، حيث اعتبرت القبائل المتحالفة مع الإسبان مرتدة وأهدرت دماء أهلها⁵⁵. وبفضل المرابطين الذين استمالهم خير الدين تمكن هذا من إسقاط الحكم المحلي⁵⁶. كما اعتمد العثمانيون على عائلة المرابط الفكون للاستقرار بقسنطينة ومن ثمة تشجعوا، بفضل هذه العائلة لما لها من نفوذ، للتوغل في دواخل البلاد وفرض الطاعة بالمناطق التلية، والتقدم نحو الجنوب الشرقي في محاولة لإنهاء تحصن بعض القبائل البدوية بـجبال الزاب⁵⁷.

وعندما استعصت بجاية على صالح رايس (حكم بين 959هـ-962هـ/1552م-1555م) تقدم سبعة فدائيين من الزواوة وتسلقوا برج المدينة، ورغم مقتلهم فإنهم فتحوا الطريق للجنود لدخول المدينة. واعترافا بتضحيتهم بنى لهم صالح رايس ضريحا في سفح برج المرسى⁵⁸.

ولكن دعم المرابطين كان يتزعزع أحيانا، ولا أدل على ذلك من تقلب ابن القاضي المذكور، وثورة سيدي يحيى الأوراسي في بداية القرن 11هـ/ نهاية القرن 16م الذي كان العثمانيون يحترمونه، لكن عندما وصل أسماعهم أنه خلع البيعة، لاحقوه حتى جبال الأوراس، وعندما فشلوا في هزيمته لالتفاف القبائل حوله، استعملوا الغدر⁵⁹.

وهكذا يتجلى الدور العظيم الذي قام به المرابطون في إرساء حكم العثمانيين بالجزائر، بتأليب العامة على حكامهم المتخاذلين والمتحالفين مع "الكفار"، وهذا ما استغله حكام الجزائر الجدد أحسن استغلالا لتثبيت حكمهم الفتي، وللقضاء على الزيانيين والحفصيين.

4) دور المرابطين في سقوط دولة بني زيان في الغرب وبني أبي حفص في الشرق الجزائري: إن التطاحن على السلطة والصراع على الحكم بين أمراء بني زيان، في الوقت الذي تزايدت فيه أطماع الإسبان في مملكتهم، قد عجل بنهاية حكمهم لأنهم غدوا بدون قوة، ومال الناس عنهم إلى المرابطين وإلى القادة العثمانيين الذين بدوا الأقدر على مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية التي حاقت بالبلاد والعباد⁶⁰. وقد تخوف الحكام الزيانيون من التجائهم للإسبان لمساعدتهم ضد مناوئتهم، لأن ذلك تسبب في كره الرعية لهم، ومنح الفرصة للمتنازعين على الحكم للاغتيال أو الانقلاب ضد الحاكم، وهذا ما استغله برباروسا أحسن استغلالا⁶¹.

وقد انقسم المرابطون والعلماء في الغرب الجزائري، وفي حاضرتهم تلمسان إلى مؤيدين للعثمانيين، نقمة على الوضع المتردي كأحمد بن يوسف الملياني المتقدم ذكره، الذي يعتبر نموذجا لتحالف العثمانيين مع المرابطين بمنطقة الغرب الجزائري، وتلميذه محمد بن شعاعة (توفي بعد 931هـ/1524م). وإلى ناقلين عليهم، مثل عبد الرحمان

اليقوي المذكور أعلاه، وهؤلاء منهم من رحل إلى المغرب الأقصى مثل شقرون الوهراني (توفي في العشرية الثالثة من القرن 10هـ/العشرية الثانية من القرن 16م)، والعبادي الذي خرج مع السلطان الغالب حين عودته من حملته على تلمسان سنة 968هـ/1561م، والعقباني (توفي في العشرية الثامنة من القرن العاشر هـ/العشرية السابعة من القرن 16م)، ومنهم من ظل في تلمسان أو ما جاورها ناقما ماكثا مثل الحاج محمد عبد الرؤوف المناوي (توفي 1031هـ/1621م)⁶². وقد كان الملياني صوفيا، شاذلي الطريقة، مثل شيخه أحمد زروق⁶³ (توفي 899/1493م)، انتشرت طريقته بالجزائر والمغرب الأقصى أثناء حياته. وقد هزّت حركته الدولة الزيانية بالتجمعات التي كان يعقدها برأس الماء وتلمسان ووهران قبل احتلالها من طرف الإسبان، وهي مناطق ذات استعداد للاضطراب والثورة، لتراخي قبضة الدولة الزيانية عليها. ومن بعده هزّ أتباعه كيان الدولة السعدية في المغرب الأقصى، حتى حاربهم عبد الله الغالب بالله بن محمد السعدي متّهما إياهم بالانحراف عن الدين، وربما لأنهم من أنصار العثمانيين بالجزائر⁶⁴. لقد تدخل الملياني في الشؤون العامة، مما أثار مخاوف السلطان عبد الله الزياني (حكم بين 911-922هـ/1505-1516م) من اتساع نفوذ الشيخ، فأمر بقتله أو إشخاصه إليه، وكتب عامل وهران إلى قايد هوارة بذلك، لكنه أبى، وطلب من الملياني الهروب⁶⁵. وساند الملياني عروج حين دخوله تلمسان، وعمل على تهدئة روع الأهالي من الجند العثماني⁶⁶.

كما تدخل المرابطون في سياسة حكم الزيانيين؛ فقد رفضوا التحالف الإسباني الزياني، وضغطوا على أبي محمد عبد الله الثاني (حكم بين 924-925هـ/1518-1519م مرة أولى) خليفة أبي حمو الثالث (حكم بين 909-923هـ/1503-1517م) لفض الاتفاقية التي وقّعها هذا الأخير مع الإسبان، وفعلا مال الأمير الزياني الجديد للعثمانيين. كما أيد بعض المرابطين، ومعهم حاكم الجزائر، هذا الأمير الزياني محمد عبد الله الثاني عندما طالب بالعرش الزياني الذي افتكه منه أخوه أبو عبد الله محمد

السابع سنة 950هـ/1543م بمساعدة الإسبان الذين نهبوا تلمسان وندسوا مساجدها⁶⁷.

ولم تكن حملة السعديين على تلمسان سنة 964هـ/1557م ممكنة، إلا بعد أن اتفق هؤلاء مع الإسبان على وقف نجاحات العثمانيين المنادين بالجهاد. ففي تلك السنة شن السعديون حملة على تلمسان، منتهزين فرصة اضطراب الأمور في مدينة الجزائر، ومغادرة القايد يوسف، وقسم من حامية تلمسان إلى الجزائر⁶⁸. وقد سهل المرابطون الموالون لهم دخول المدينة.

إن المرابطين في تلمسان والغرب الجزائري عموما كان ولاؤهم وتأيدهم منقسما على الأطراف المتصارعة على تلمسان من زيانيين وسعديين وعثمانيين. وهذا الانقسام هو الذي ساعد على سقوط دولة بني زيان، لأن ميل بعض المرابطين البارزين عنهم إلى خصومهم (الملياني)، أضعفهم إلى حد كبير، وأدى في النهاية إلى سقوط دولتهم.

أما دور المرابطين في إسقاط دولة الحفصيين فيتجلى في نفورهم من تعامل السلطان الحسن الحفصي (حكم بين 932-942هـ/1526-1535م) مع الإسبان⁶⁹، وقبله قهاون والده السلطان محمد (حكم بين 900-932هـ/1494-1526م) في التصدي للحمالات الإسبانية على بجاية وطرابلس والجزائر التي كانت تابعة للحفصيين اسميا، فتوجهت أنظار الناس إلى المرابطين، ملتجئين منهم النجاة، حيث أن الخطر الذي مثله النصارى على البلاد أثار الحمية الدينية بين السكان، وقوى تأثير الجماعات الصوفية، خاصة الشايبية⁷⁰، فمالوا إلى الالتفاف حول مرابطيها. ولا أدل على ذلك من رفض الجيش النظامي طاعة مولاي حسن الحفصي عندما أمره بمهاجمة القيروان، مقر الشايبية، لأن الشايبين واجهوا الإنزال الإسباني في جربة⁷¹. وعندما اعتلى زعيم الطريقة الشايبية سيدي عرفة (توفي 949هـ/1542م) حكم القيروان وأحوازها جمع الضرائب من القبائل، التي دخلت تحت لواء الطريقة الصوفية، ضرائب كانت تدفعها القبائل للحفصيين، ذلك أن الشايبين رفعوا راية رسول الله -ص-. وقد حاربهم السلطان الحفصي دون هوادة لكنه لم يتمكن منهم وهذا ما أضر بالحفصيين⁷². ووصل تأثير هذه

الطريقة حتى قسنطينة، فقد كوّن زعيمها عبد الصمد (توفي 1025هـ/1616م) في تونس وشرق الجزائر تحالفا مع الحنانشة والناماشة والحراكتة، أي كل قبائل قسنطينية كوّنوا حلفا ضد حميدة الحفصي⁷³ المتعامل مع الإسبان.

وكان خير الدين بربروسا قد استعان بجموع من الحنانشة والناماشة، وهم ضمن الكونفدرالية التي أقامتها الشايبة، استعان بهم لدخول تونس، سنة 941هـ/1535م، لكنه انهزم بعد عودة الحسن الحفصي مع أسطول إسباني، وحملة إسبانية ضخمة.⁷⁴

(5) دور المرابطين في تحرير المواقع المحتلة:

لقد دفعت التهديدات ثم الحملات المسيحية على بلاد المغرب إلى إعلان الجهاد على "الكفار"، ولبي النداء جموع غفيرة من السكان، مدفوعين من مرابطيهم، متعاطفين مع الأندلسيين بعد علمهم بما قاسوه في الأندلس، وما حدث لإخوانهم في وهران وبجاية وغيرهما في الجزائر بعد احتلالها من الإسبان، وما كان يحدث بإسبانيا لمن تمسك من الأندلسيين بدينه⁷⁵. ومن أبرز من دعا إلى الجهاد ضد الإسبان المرابط أحمد بن القاضي الزواوي⁷⁶، المذكور أعلاه قبل انقلابه على بربروسا. وقد بدأ مقاومته بعد سقوط بجاية في يد الإسبان سنة 916هـ/1510م⁷⁷ بأن اتفق مع حاكم مدينة الجزائر سليم التومي (قتل 922هـ/1516م) على الاستنجاد بالإخوة بربروسا⁷⁸، الذين طار صيتهم خاصة بعد فتح مدينة جيجل سنة 920هـ/1514م، لتحرير مدينة الجزائر، والتف حولهم الزواوة بقيادة مرابطيهم، معتبرين عدم التعاون مع العثمانيين حراما⁷⁹. فأسرع الإخوة بربروسا لمدينة الجزائر، بعد أن هيا لهم ابن القاضي وسليم التومي النفوس، فنالوا استقبالا حسنا من العامة⁸⁰، هكذا استحكمت العلاقة بينهم وبين الجزائريين.

إن التحالف بين الطرفين هو الذي سهّل دخول الإخوة بربروسا إلى مدينة الجزائر، وبفضل جند زواوة الذي كان على رأسهم المرابط ابن القاضي، تمكن عروج من الجزائر، ثم تنس وتلمسان....⁸¹. وبفضل التحالف الذي قام بين أوائل العثمانيين والمرابطين أمكنهم التصدي للحملات الإسبانية التي استهدفت مدينة الجزائر، والنجاح

في طرد الإسبان من البنيون، ثم من بجاية. وإذا كان آل ابن القاضي قد تذبذبوا في ولائهم للعثمانيين⁸² فإن موقف المرابطين ظل في مجمله يدعم الحكام الجدد في الجزائر، ولا سيما حين تكون هذه مستهدفة بحملة من الإسبان وحلفائهم مثلما وقع سنة 948هـ/1541م خلال حملة شارلكان على مدينة الجزائر، ففي ذلك الظرف ظهر جلياً تحالف المرابطين مع حسن آغا حاكم الجزائر آنذاك. وبفضل ذلك التحالف أخفق شارلكان ومن حالفه في الحملة وعادوا أدراجهم خائبين⁸³. وتقول الرواية المتوارثة أن المرابط قارة يوسف، أعلن أن الله أخبره بأنه هو الذي سينقذ المدينة إن هي قاومت⁸⁴. ويذكر مرمول أن معنويات الجيش الإسباني أُحبطت بعد سماعه إشاعة مفادها أن ساحرة عجوزا تنبأت بهزيمة حملة "ديقو دو فيرا" « D.de Vera » سنة 922هـ/1516م وغرق أسطول "هيجو دو مونكاد" " H. de Moncade " سنة 925هـ/1519م أمام مدينة الجزائر، وانحزام شنيع يلحق بأمر مسيحي ثالث، وصدق الناس لصحة الحاليتين السابقتين مما رفع من معنويات سكان الجزائر، وقد عمل العثمانيون على نشر تلك الإشاعة⁸⁵. صحيح أن المؤرخين اختلفوا في أسباب هزيمة شارلكان⁸⁶، لكن سكان الجزائر ردوا الأسباب إلى حماية الأولياء للمدينة، فجامع سيدي بتقة شوهذ مضاء ليلة المعركة⁸⁷ وقد قذف أسطول الإسبان بالحجارة⁸⁸. أما المرابط ولي دادة (توفي 961هـ/1554م) فحضر البحر بعصاه وأغرق نصف الأسطول. وسيدي بوقدور رمى أقدار خفيفة بالبحر أثارت العاصفة التي أغرقت الأسطول، ومنذ تلك الحملة أصبحت الجزائر تعرف بالخروسة⁸⁹.

ولم يكتف المرابطون بإثارة الحماسة لدى العامة، بل تعدوها إلى حث الحكام على إخراج المسيحيين من أرض الإسلام، فهاهو سيدي محمد بن عبد المؤمن الجزائري يحرض حسن بن خير الدين (951هـ-958هـ/1544م-1551م عهدة أولى) على قتال إسبان وهران في هائيته التي مطلعها: نادتك وهران فلب نداها⁹⁰.

وإذا كان ابن القاضي قد تذبذب في ولائه للعثمانيين، كما ذكرنا، فإن الملياني الذي جسد هو الآخر رفض المغاربة للأجنبي، وللتعفن السياسي، واستكانة الفقهاء، لم يحاول

مثل ابن القاضي في الجزائر والسعديين في المغرب الأقصى تأسيس مملكة مستقلة، ربما لوجود العثمانيين بمنطقة نفوذ الروحي⁹¹، ولأنه أدرك قلة حيلته أمام الإسبان، وعدم قدرته على مواجهتهم، فتحالف مع برباروسا.

وكان أحمد بن مخلوف الشابي (835-898هـ/1431-1492م)، مؤسس الطريقة الصوفية، هياً لذريته أساساً فعلياً لإقامة دولة على أساس ديني صوفي تكون سبباً لإنقاذ البلاد من الفوضى، ومن السيطرة الأجنبية، وذلك في كتابه "مجموع الفضائل في سر الرسائل في بداية الطريق لأهل التحقيق"⁹²، ورغم إنشاء الشايبين لدولتهم بالقيروان (942-965هـ/1532-1557م) فإنها لم تدم طويلاً لأن حكامها ابتعدوا عن توجهاتها الصوفية. وسقطت دولتهم، ثم لم تلبث الطريقة طويلاً حتى ضعفت وانقرض العقد الذي أمضى ابن مخلوف الشابي سنوات طوال في جمعه.

اتضح دور المرابطين هنا في تحريضهم على قتال "الكفار"، وضرورة محالفة ومساعدة كل من حاربهم، وإن كان غريباً عن الجزائر، ذلك أن حركة الجهاد ضد الصليبيين وحدث الجزائريين، ورمت باختلافاتهم وراءهم لغاية طرد الصليبيين.

خاتمة:

تبين مما سبق الأدوار التي قام بها المرابطون في أحداث القرن 10هـ/16م، بدءاً بإصلاح ذات البين ونشر الأمن في الجزائر التي انتشر فيها بداية هذا القرن الفوضى السياسية، وانعدام الأمن ببواديها وسهولها نتيجة لذلك، ولم يعد في بلاد السبا هذه نفوذ أو سلطة لأmir أو حاكم، فتدخل المرابطون، اعتماداً على نفوذهم الروحي، لنشر الأمن والأمان، وإصلاح ذات البين في مناطق سلطتهم. كما استخدموا نفوذهم لتعبئة الجزائريين للتصدي للخطر الإسباني القادم من الشمال، وإن عازتهم التجربة والوسائل، لكن عندما ظهر جنود كانوا يحاربون الإسبان في البحار، وضع المرابطون يدهم في يد العثمانيين الذين لم يستكينوا في محاربة "الكفار"، وتحالفوا معهم، ثم دعموا حكمهم. وهذه المساعدة كانت حاسمة، فقد تمكن العثمانيون من إسقاط الحكم الزياني بتلمسان، وعجلوا بإسقاط الحفصيين بتونس وقبلها بالشرق الجزائري، بفضل الدعم الذي قدمه

المرابطون لهم. وهذه القوى الدينية هي التي مكنت العثمانيين من الاستقرار بالجزائر منذ القرن 10هـ/16م. فهذا القرن كان مرحلة حاسمة في تاريخ الجزائر الحديث والمنطقة بأكملها، ذلك أن الهجمات المسيحية تصدى لها العثمانيون بمساعدة مصيرية من المرابطين، وذلك بتجنيدهم العامة بكلمة "الجهاد في سبيل الله" و"الله أكبر". ومساعدة المرابطين للعثمانيين للاستقرار بالجزائر كانت حاسمة لأن هؤلاء كانوا يجاربون "الكفار". أما من تحالف مع هؤلاء من الجزائريين فكان مصيره الخذلان والطرده أو القتل، وفقد بهذا الزبانيون والحفصيون الشرعية وطاعة الرعية لتحالفهم مع الإسبان "الكفار"، بينما بقي العثمانيون في قتال مستمر مع الإسبان دون كلل، ما دعم مكانتهم ومكنتهم من الاستقرار بالجزائر، لأنهم كانوا خير من يدافع عن الإسلام والمسلمين، وهذا ما كان يعمل لأجله المرابطون، حماية للبلاد والعباد من "الكفار".

الهوامش:

(1) اعتبر غوتيه أن حركة التصوف التي قادها المرابطون في بداية العصور الحديثة أزمة حلت بالمغرب الكبير، لكنه اعترف أنها أكملت ما بدأه البدو العرب منذ قرون وهو تعريب البربر. أنظر

E.F.Gautier: Le passé de l'Afrique du nord (les siècles obscurs), nouvelle édition, petite bibliothèque Payot, Paris, 1952, P 416.

(2) مرمول كبرخال: إفريقيا، الجزء 2، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1989، ص 318.

3) J.B. Gramay: Alger 16^{ème}-17^{ème} siècles: son journal, les éditions du Cerf, France, 1998, p 26.

4) F.D.Haëdo: "Histoire des rois d'Alger", in Revue Africaine, n°24, 1880, OPU, Alger, 1986, P 108, 109.

5) Ibid, P 10 et 16.

6) A.Joly: "Saints de l'Islam", in Revue Africaine, n°52, 1908, OPU, Alger, 1986, P 173.

ذكر جولي أنه عندما حاول الجند العثمانيون استعمال القوة مع المرابط أسقط عليهم الجبل، بمنطقة بوخاري ضواحي التيطري. واعتقد أن الرفات والأسلحة التي وُجدت بالمنطقة، في بداية القرن 20م، هي لهؤلاء الجنود. أنظر المرجع نفسه، ص 174.

(7) أحمد الونشريسي: المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب، المجلد

2، خرّجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص 403.

8) عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص. 201.

9) Jean Léon l'Africain: Description de l'Afrique, traduit de l'italien par A.Epaulard, Adrien-Maisonneuve éditeur, Parie, 1946, tome 2, p 356.

10) عبد الله نجمي: التصوف والبدعة بالمغرب طائفة العكاكرة (ق 16-17م)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2000، ص 96. وإن كان هو نفسه تعرض له الأعراب طمعا في خيوله وأبقاره... أنظر محمد بن عبد السلام الشريف الحسني: ربح التجارة ومغنم السعادة فيما يتعلق بأحكام الزيارة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر، رقم 928، نسخ 1297هـ/1880م، عن نسخة مؤلفه، 1274هـ/1857م، ورقة 83 وجه.

11) C.Féraud: « Époque de l'établissement des Turcs à Constantine », in Revue Africaine, n°10, 1866, Alger, OPU, 1986, P 195.

12) الفكون: المصدر السابق، ص. 159.

13) حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 112.

14) نفسه، ص 57. كان مرابطو الأشراف يُصلحون ذات البين رغم أنهم ليسوا قضاة، ولا يتدخلون في خلاف إلا بطلب من طرفي القتال، حيث يقبل أهل القتل الدية، ويتوقفون عن مطاردة القاتل، ويُذبح كبش كعلامة على المصالحة، ومن يرفض حكم الشريف تلحقه "لعنة الله". أنظر

Ernest Gellner: Islam société et communauté: Anthropologies du Maghreb, édition du centre national de la recherche scientifique, Paris, 1981, p 39.

15) محمد بن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص. 134.

16) سبنسر ترمنجهام: الفرق الصوفية في الإسلام، ترجمة ودراسة وتعليق: عبد القادر البحراري، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1997م، ص 353.

17) عبد الوهاب الشعراني: (لوائح) الأنوار القدسية في بيان قواعد الصوفية، تحقيق: لجنة التراث في الدار، دار صادر-دار البشائر، دمشق، 1999، ص 292.

18) Renet Basset: "Les dictons satiriques attribués a Sid Med Ben Youcef", extrait du Journal Asiatique, 1890, imprimerie nationale, Paris, P 30, et M.A.Arnaud: "Voyages extraordinaires et nouvelles agréables par Med Abou Ras B.Ahmed B.Abd Elkader Ennasri: histoire de l'Afrique septentrionale", in Revue Africaine, n°24, 1880, OPU, Alger, 1986, P 181.

- 19) الفكون: المصدر السابق، ص 201، 49.
- 20) لطفي عيسى: مدخل لدراسة مميزات الذهنية المغاربية خلال القرن 17م، سراس للنشر، تونس، 1994، ص 109.
- 21) محمد الصالح بن العنتري: فريدة مؤنسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مراجعة وتقديم وتعليق: يحي بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية، 1991، ص 27.
- 22) H'sen Derdour: Annaba 25 siècles de vie quotidienne et de lutte, tome 2, SNED, Alger, 1983, P 15-16.
- 23) O.Depont et X.Coppolani: Les confréries religieuses musulmanes, J.Maisonnewe et P.Geuthner S.A, Paris, 1897, P 231, et A.Bel: La religion musulmane en Berbérie, tome 1, Librairie Orientaliste P.Geuthner, Paris, 1938, P 378, 379.
- 24) ج. ب. وولف: الجزائر وأوروبا، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 27.
- 25) C.Brosselard: Les Khouans: de la constitution des ordres religieux musulmans en Algérie, Imprimerie de A.Bourget, Alger, 1952, P 18 et P 24.
- 26) كمال عمران: الثقافة الإسلامية: مظاهر التجريب والتجريد، الدار التونسية للنشر، تونس، 1992، ص 117.
- 27) R.P.Dan: Histoire de Barbarie et de ses corsaires, des royaumes et des villes d'Alger de Tunis, de Salé et de Tripoli, 2^{ème} édition revue et augmentée par le même auteur, Pierre Rocalet imprimeur et libraire, Paris, 1648, P 27.
- 28) محمد بن رقية التلمساني: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائر، رقم 1662، نسخ 1194هـ/1780م، ورقة 1 ظهر.
- 29) ناصر الدين سعيدوني والمهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ، العهد الرابع: العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 43.
- 30) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، جزء 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص 460، 461.
- 31) P.Ruff: La domination espagnole a Oran sous le gouvernement du comte d'Alcaudete 1534-1558, éditions Bouchene, France, 1998, P 159.
- 32) M.Walsin Esterhazy: De la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, librairie de Haches Gosselin, Parie, 1840, p 157, 158, et Moulay Belhamissi: Histoire de Mostaganem (des origines à

l'occupation française), centre national des études historiques, Alger, 1976, P 79.

اختلفت الروايات حول قائل هذه الأبيات فهناك من ينسبها إلى سيدي السعيد؛ الم رابط الذي حمى المدينة

من الإسبان، وهو مدفون بها. أنظر M.Belhamissi :OP CIT, P 79

33) F.Braudel: La Mediterranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe 2, tome 2, librairie Armand Colin, Paris, 1976, P 364.

34) R.Basset: Nédroma et les Traras, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1901, P 212.

35) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، جزء 1، ص. 140

36) مجهول: الغزوات، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر، رقم 1622، نقلها للعربية محمد بن

علي الغلغلي الجزائري، نسخها محمد بن قاسم في 7 ربيع الثاني 1177هـ/أكتوبر 1763م، ورقة 10 ظهر و 11 وجه وظهر.

37) محمد بن عسكر: دوحة الناشر لحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977، ص 126. كتب ابن القاضي لبروسا: "إن البلاد بقيت لك أو لأخيك أو للذئب". أنظر محمد الصغير الوفراي: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، مطبعة بوردين وشركاه، Angers، 1888، ص 17.

38) خير الدين بربوسا: مذكراته، ترجمة وتعليق: محمد دراج، الطبعة 2: مزيدة ومنقحة، الأصالة للنشر

والتوزيع، الجزائر، 2013، ص. 91

39) ابن رقية التلمساني: المصدر السابق، ورقة 6 ظهر.

40) A.Berbrugger: Les époques militaires de la grande Kabilie, Bastide libraire-éditeur, Alger, 1857, P 62.

41) A.Cour: L'établissement des dynasties des chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs d'Alger :1509-1830, Ernest Leroux éditeur, Parie, 1904, P 75.

بعد انقلاب ابن القاضي على بربوسا، فاوض الأول إسبان بحماية لتموينهم بالمواد الغذائية، وكاد الأمر

ينجح لولا بعض الم رابطين، أصحاب بربوسا، الذين رفضوا الأمر. وأمام تخوف ابن القاضي من ضياع نفوذه أوقف المفاوضات. أنظر

Elie De La Primaudie: "Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506- 1574)", in Revue Africaine, 1877, OPU, Alger, 1985, p 84.

42) محمد الصالح العنتري: أعمال عروج وخير الدين وحملة الطاغية ونزوله بوادي الحراش جهة وادي خنيس، ضمن مجموع، مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس، رقم A5754، نسخ 1192/هـ 1778م، ورقة 30 ظهر.

43) مجهول: المصدر السابق، ورقة 22، 24 وجه وظهر. ذكر خير الدين ببروسا أن فرحات ابن أخ ابن القاضي اعتذر له طالبا العفو منه، مؤكدا أنه لم تكن له صلة بتمرد عمه، وتعهده بدفع 20 ألف دوقية، وأضاف بأنه سيكون خادما وفيا له. أنظر خير الدين ببروسا: المصدر السابق، ص 124.

44) ابن رقية التلمساني: المصدر السابق، ص 13.
أنظر استشارة خير الدين للشيوخ الدينيين، واعتراف هؤلاء بفضلهم على الجزائر في خير الدين ببروسا: المصدر السابق، ص 108.

45) E.Dermenghem: Le culte des saints dans l'islam maghrébin, Gallimard, Paris, 1954, P 39.

46) W. Esterhazy: OP Cit, P 129.

47) أبو القاسم سعد الله: مرجع سابق، الجزء 1، ص 497.

48) M.Bodin: Les dictons satiriques attribués a Sid Med Ben Youcef, P182-183.

49) مجهول: مصدر سابق، ورقة 14 ظهر و15 وجه.

50) محمد الصباغ: بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر، رقم 1707، نسخ 1140/هـ 1727م، ورقة 11 وجه.

51) M.Bodin: Les dictons satiriques attribués a Sid Med Ben Youcef, P166 et 171.

52) محمد الحاج صادق: مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989، ص 108.

53) Péré J.Mésnage: Le christianisme en Afrique, A.Jourdin Alger-A.Picard Paris, 1915, P 150.

54) S.A.Boulifa: Le Djurdjura a travers l'histoire (depuis l'antiquité jusqu'à 1830), J.B.Bringau imprimeur-éditeur, Alger, 1925, P 145.

لم ييأس الإسبان من إمكان تحالف حكام الزواوة معهم لإخراج العثمانيين من الجزائر رغم اقتناعهم أن الرعية تؤثر هؤلاء عليهم لأن الملة واحدة. أنظر

H.L.De Verdalle: "Cote et discours de Barbarie", in Revue Africaine, n° 66, 1925 , OPU, Alger, 1986, P 549.

55) عبد القادر المشرفي: بحجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإشبانيين بوهران من الأعراب كبنى عامر، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص 37.

56) R.Basset: Dictons satiriques attribués a S.M.B.Y , P 21.

57) محمد الأمين بلغيث: "النسق الثقافي للسلطة في الجزائر وتونس من خلال تاريخ محمد بن عمر العدواني"، في المجلة التاريخية المغاربية، العدد 117، السنة 32، جانفي، 2004، منشورات مؤسسة التميمي، زغوان، ص 34.

58) المهدي بوعبدلي: "الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى"، في الأصالة، العدد 13، السنة 3، 1973، مطبعة البعث، قسنطينة، ص 37.

59) الفكون: المصدر السابق، ص 54، 55. انظر تفاصيل هذه الثورة في أبي القاسم سعد الله: المرجع السابق، الجزء 1، ص 218، 219.

A.Cour: OP CIT, 60 P 53.

61) كرنجال مرمول: المصدر السابق، الجزء 2، ص 306.

62) ابن عسكر: المرجع السابق، ص 18 و 123 و 126، كذلك أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، الجزء 1، ص 461.

63) محمد بن عبد السلام: المرجع السابق، ورقة 80 ظهر. حسب أوغست كور الملباني قادري الطريقة. أنظر

97P A.Cour: OP CIT,

64) ابن عسكر: المصدر السابق، ص 125، كذلك سعد الله: المرجع السابق، الجزء 1، ص 496 و 497.

65) محمد الصباغ: المصدر السابق، ورقة 4 ظهر، كذلك محمد بن عبد السلام: المرجع السابق، ورقة 83 ظهر.

66) عبد الله نجمي: المرجع السابق، ص 100.

P.Ruff: OP CIT, P 34, 35 et 110. 67)

هناك اختلاف في أسماء وتواريخ حكم الأمراء الزيانيين من ذلك ما ذكره ساندوفال أن دالكوديت نصب عبد الله الزياني سنة 950هـ/1543م، وعاد لتلمسان سنة 954هـ/1547م بعد تحالفه مع قبائل عربية. أنظر

Général C.X.De Sandoval: Les inscriptions d'Oran et de Mers El Kébir (notices historiques sur ces deux places depuis la conquête jusqu'à leur abondant 1792), in Revue Africaine, n° 15, 1871, OPU, Alger, 1986, P 280.

68) A.Cour: OP Cit, P 127.

سبب ذلك مقتل حاكم الجزائر حسن قورصو (حكم بين 963-964هـ/1556-1557م) على يد الباشا مبعوث السلطان، وانتقام قايد حامية تلمسان يوسف له، لكونه صديقه، بقتل الباشا مبعوث السلطان (بين 963-964هـ/1556-1557م). أنظر التفاصيل في

A.Cour: CIT, P 125-126, et P. Ruff: OP CIT, P 158.

69) محمد العدواني: تاريخ العدواني، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ص 232.

70) نسبة لمدينة شابة قرب المهديّة بتونس، سكانها يعرفون بالشايبية، وهم عبارة عن خليط من قبائل عربية وبربرية، تجمعوا تحت لواء الجهاد الذي رفعتهم الطريقة الشايبية ضد الإسبان وضد السلطان الحفصي المتحالف معهم. أنظر

C.Féraud: « Les Harar seigneurs des Hanencha: Etude historique sur la province de Constantine », in Revue Africaine, n° 18, 1874, OPU, Alger, 1986, P 131,134.

71) M.Talbi: Al-Kayrawen, in Encyclopédie de l'Islam, Tome 4, Leyde E.J.Brill et G.P.Maisonneuve et Larose S.A, Paris, 1965, P 861.

72) العدواني: المصدر السابق، صص 178، 179، 180، 181، 182 و223. كان الشايي بمقت الحفصيين إلى حد قوله: "والله لو وجدت الروم تقاتلك(السلطان الحفصي) لأعتهم عليك". أنظر نفس المصدر، ص 173. وأنظر عن موقف الشايبية من الحفصيين بصفة عامة صص 223 و227 و232. ..

73) M.Kaddache: L'Algérie durant la période ottomane, OPU, Alger, 1991, P64.

74) C.Féraud: Les Harar seigneurs des Hanencha, P 136.

إن موقف تلك القبائل المنضوية تحت إمارة مرابطية يوحى أن المرابطين لم يقبلوا الوجود الإسباني على أرض الإسلام. صحيح أن الشايبية كان لها نفوذ قوي بشرق الجزائر، لكن شدة عبد الصمد الشايي في تعامله مع القبائل أدى إلى انفصال الحنانشة عنه. أنظر علي الشايي: مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشايبية، في المجلة التاريخية المغربية، عدد 13 و14، يناير 1979، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس، ص 74.

75) S.Boulifa: OP Cit, P 90.

76) Ibid, P 117, et A.Cour: OP CIT, P 75.

هو من عائلة عريقة هي عائلة أبي العباس الغبريني عالم الشريعة والفقه في القرن 7هـ/13م، بذل نفسه وماله لمحاربة الإسبان. أنظر محمد بن عسكر: المصدر السابق، ص 126.

77) كورين شوفالييه: الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510م-1541م، ترجمة: جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص 25. استمات سكان بجاية في الدفاع عنها، وخلال

الحصار نادى المرابطون داخل المدينة بالجهاد تشجيعا للمقاتلين، وبعد سقوط المدينة وجد الكثير منهم ضمن القتلى. أنظر

C.Féraud: « Conquête de Bougie par les Espagnols », in Revue Africaine, n° 12, 1868, OPU, Alger, 1986, P 253- 254.

78) A.Cour: OP CIT, P 75.

79) C.Feraud: « Histoire des villes de la province de Constantine(Jigelli) », in Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine, 4^{ème} volume de la 2^{ème} série, 1870, 14^{ème} volume de la collection, L.Arnolet libraire éditeur, Constantine, p 120, 121, et S.Boulifa: OP CIT,P 102.

80) A.Cour: OP CIT, P 75.

81) Pierre Boyer: « La politique religieuse des Turcs », in Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, n°11, 1966, archive d'outre mer, Aix-en-Provence, p 16.

82) من أمثلة ذلك اقتراح أمير كوكو تسليم موانئ للإسبان مقابل مساعدته لطرد العثمانيين من مدينة الجزائر في العشرية الأولى من القرن 11هـ/ العشرية الأخيرة من القرن 16م. أنظر. F.Braudel: 477. OP CIT, tome 2, P

83) ساهم الحماس الديني في ردّ شارلكان على أعقابيه لأنه لم يحسب للمرابطين حسابا، فلساهم كان أشدّ من أي سلاح، بالحماس الذي كانوا يبثونه بين المقاتلين بكلمة "الله أكبر". وحسن آغا كان يصيح في سكان الجزائر قائلا: "إن الأسطول المسيحي ضخم، ولكن لا تنسوا نصر الله يسديه للمسلمين ضد أعداء الدين". أنظر

C.Trumellet: Les saints de l'islam, Didier et Cie libraires-éditeurs, Paris, 1881, P 54 –55.

84) جون وولف: المرجع السابق، ص. 57.

85) كرنخال مارمول: المصدر السابق، الجزء 2، ص. 367.

86) رد الإسبان هزيمتهم إلى سوء الأحوال الجوية. أنظر De Verdalle :OP CIT, P 535

87) كورين شوفالييه: المرجع السابق، ص 120.

88) R.P.Dan: OP CIT, P 106.

89) كورين شوفالييه: المرجع السابق، ص 120، 121.

90) محمد الزياتي: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص. 182.

91) J.Berque: L intérieur du Maghreb 15^{ème} 19^{ème} siècles, Gallimard, France, 1978, P 103.

92) علي الشابي: المرجع السابق، ص 58، 59. والكتاب عبارة عن رسائل بعثها ابن مخلوف للبلاد
جمعها أحد مريديه. أنظر نفس المرجع، ص 59.